

المؤسسات الثقافية في بلاد المغرب الأوسط خلال ق 08هـ/ 14م

قويدر عباس

طالب دكتورالي قسم العلوم الإنسانية

جامعة سيدي بلعباس - الجزائر

Abstract :

The warlords sought Bani ziane in the context of activating the scientific movement in Maghreb centrale Allocating places for scientific lessons that was through the construction of schools, which was a new phenomenon in the Islamic maghreb where the State hafside dynasties: first the construction of the first school in the Maghreb, the Islamic State followed by the construction of several schools to mention my son school Imam school yakubiyeh.

مقدمة:

احتلت السياسة التعليمية في بلاد المغرب المغرب الإسلامي بعد انقسام دولة الموحدين حيزا هاما من اهتمام الأمراء، لا لشيء سوى أن العلم من أبرز مظاهر رقي الدولة، كما لانسى أن كل من الدولة الزيانية والحفصية والمرينية قد كانوا في صراع سياسي وعسكري شبه دائم، فكانت حاجتهم إلى تعميق شرعية حكمهم، ولايتأتى لهم ذلك إلا بالاهتمام بالعلم والعلماء ليظهروا في مظهر الراعي للعلم، فيحصلوا رضا العلماء وطاعة العامة، ويعد تشييد المؤسسات التعليمية إحدى مظاهر هذا الاهتمام، وهو ما يبادر به أمراء بني زيان فشيّدوا عدة مدارس سنتطرق إليها في الصفحات الموالية

1- نشأة المدارس ببلاد المغرب الأوسط:

إن التسابق المحموم والتنافس الشديد الذي شهده العالم الإسلامي بشكل عام والمغرب الإسلامي بشكل خاص حول النبوغ العلمي والتفوق الفكري والريادة الثقافية، شجع وحمّس سلاطين بني زيان على الدخول في السباق بكل قوة علّهم يفتكون مرتبة مشرفة على سلّم الإشعاع العلمي، فاهتموا بتشييد المؤسسات التربوية والتعليمية، من كتاتيب وزوايا ومساجد وبشكل خاص المدارس على نمط المدارس النظامية بالشرق والمغرب. والتي لم تظهر في تلمسان إلا في مطلع القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي، متأخرة عن بلاد المشرق بنحو قرنين من الزمن، وعن الإفريقية والمغرب الأقصى بنحو نصف قرن¹. وحسب ما ذكره (بارجيه - BARGES)، كان يتواجد بتلمسان لوحدها العديد من المساجد الرائعة الجمال، كما كانت تضم مجموعة من المدارس أنشأت من قبل ملوك تلمسان، وكان غالبية المتدربين يتلقون تعليمهم مجانيا و كانوا يتدارسون العلوم الدينية المنطق والرياضيات و غيرها من العلوم.² وتمثلت وظيفة هذه المؤسسات الثقافية في استقبال الطلبة لمزاولة تعليمهم قصد تخريج الإطارات التي تدعم الجهاز السياسي والإداري والمالي والقضائي والجيش ومختلف مصالح الدولة ومؤسساتها. وكان الهدف من وراء حركة تأسيس المدارس من طرف الدولة الزيانية، هو نشر التعليم والثقافة من جهة، ومن جهة أخرى توجيه الرعاية لخدمة التوجه المذهبي للدولة، وهي نصرة المذهب المالكي والعمل على نشره³، وكانت المدارس خير الوسائل المتاحة لتحقيق تلك الغاية.⁴ ولم يقتصر تشييد المدارس على الدولة الزيانية، بل حتى بنو مرين شيّدوا مدارس على التراب التلمساني.

-المدارس الزيرية:

● -مدرسة ولدي الإمام:

يعتبر السلطان أبي حمو موسى الأول مؤسس أول مدرسة في تاريخ تلمسان الزيرية، وعرفت باسم مدرسة الأخوين ابني الإمام وذلك سنة 710هـ /1310م، وقد أنشأها تكريما للعالمين الجليلين الفقيهين أبي زيد عبد الرحمن، وأخيه أبي موسى عيسى ابني الإمام الفقيه أبي عبد الله محمد بن الإمام بن برشك، واللذان دخلا تلمسان في عهد هذا السلطان فأكرمهما وابتنى لهما هذه المدرسة بناحية المطمر من تلمسان والتي سميت باسمهما، كما اختط لهما مسجدا ومزلي⁵.

وما يحز في النفس أن المصادر التاريخية لم تسعنا بالمعطيات الضرورية عن تدشين هذا الصرح الحدث في تاريخ بلاد المغرب الأوسط. وكل ما ذكر كان عبارة عن إشارات أثناء الإشادة بأعمال السلطان أبي حمو موسى الأول، فيقول التنسي عن ظروف وهدف تأسيسها: "...كان محبا للعلم و أهله معتنيا به (أي أبي حمو موسى الأول) قائما لحقه ابنتي مدرسة لابني الإمام تكريما لهما واحتفاء بهما".⁶ وفي إشارة إلى المدرسة يقول ابن مريم: "وبنيت المدرسة داخل باب كشوط".⁷

ولما كانت مدرسة أولاد الإمام هي أول مؤسسة تربوية ثقافية في حاضرة الدولة الزيرية، فقد عين السلطان للتدريس بها فطاحل العلماء الذين طبقت شهرتهم بلاد المغرب وحتى المشرق، لتؤدي الرسالة المنوطة بها على أكمل وجه، حيث قام بالتدريس فيها علماء من أمثال التلمسانيان عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الإمام أبو زيد شيخ المالكية وأخيه الإمام

العلامة الكبير أبو موسى عيسى ابني الإمام المشهورين بأولاد الإمام، وهما فضلا المغرب في وقتهما.⁸

وبما أن الطبيعة ويد الإنسان العابثة لم تترك لنا أي أثر للمدرسة ومترلي الإمامين، فقد حاول (مارسيه-MARÇAIS) من خلال ما توصل إليه من دلائل وقرائن تاريخية أن يرسم صورة افتراضية للمعلم. وحسب ما توصل إليه من نتائج فإن المدرسة كانت تتموقع غرب مسجد أولاد الإمام وشماله، وأنها كانت تتألف من قاعتين كبيرتين، يتلقى فيها طلبة العلم دروسهم على يد الشيخين الحليلين ابني الإمام.⁹ ولكن في غياب الشواهد المادية المتمثلة في الحوالات الحبسية أو وثائق التجنيس الملحقة بالمدرسة، يصعب على أي كان التعرف على دور المدرسة الفكري، ومساهماتها في نشر الثقافة الإسلامية ومختلف العلوم، وتكوين الأطر وإعدادها للقيام بدورها في المجتمع بالتعليم والتأليف وشغل المناصب العليا في الدولة.¹⁰ واستمرت هذه المدرسة في تأدية مهامها التربوية التعليمية الثقافية حتى القرن العاشر، السادس عشر ميلادي.¹¹

● المدرسة التاشفينية:

تعد المدرسة التاشفينية ثاني مؤسسة تعليمية زيانية أسست ببلاد المغرب الأوسط سنة 725هـ/1179م، بناها السلطان عبد الرحمن أبو تاشفين (718هـ/1318م-737هـ/1337م) على ضريح والده يعقوب وعميه أبي سعيد عثمان وأبي ثابت، وتمّ تدشينها في شهر صفر سنة 765هـ/1364م.¹² تقع التاشفينية بإزاء المسجد الجامع جنوبا. وهي بذلك توجد في مجال يعتبر النواة الأولى بعد جامع أغادير الذي أسسه إدريس الأول خلال النصف الثاني من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي.¹³

ويتبين أن اختيار موضع التاشفينية، لم يكن وليد الصدفة، بل خضع لاعتبارات إستراتيجية تكمن في رغبة مؤسسها في الاستفادة من هذا المجال الحيوي، واستثماره كي تنجح هذه المدرسة في أداء رسالتها التعليمية الثقافية، وطموحه في إضفاء طابع الإجلال والعظمة عليها، على اعتبار أن سكان المدينة تكن تقديرا واحتراما كبيرا للمباني المجاورة لها.¹⁴ وأكد التنسي على أن هذه المدرسة من مآثر السلطان أبي تاشفين الزياني حين قال: " وحسن ذلك كله ببناء المدرسة الجليلة، العديمة النظير، التي بناها بإزاء الجامع الأعظم، ما ترك شيئا مما اختصت به قصوره المشيدة، إلا وشيد مثله بها، شكر الله له صنعه وأجزل له عليه ثوابه ".¹⁵ فكانت من خلال ذلك أهم مدرسة في المغرب الأوسط قد احتفل بها هذا السلطان المنشئ بالعلوم والفنون والذي أبا إلى أن يضيف إلى عاصمته معلما آخر ينافس المعالم السابقة، ولأن يجلب إليه العلماء الأجلاء أمثال: أبي موسى عمران المشدالي¹⁶ الذي كان من أكبر الفقهاء المالكيين في عصره وأبي عبد الله السلاوي ومحمد بن أحمد بن علي بن أبي عمرو التميمي. كما اعتنى أبو تاشفين بالمدرسة، وأكثر عليها الأوقاف ورتب فيها الجرايات، وفي الواقع فقد سلك هذا الملك مسلك أسلافه إذ أن أبا حمو موسى الأول (1308-1318) حينما بنى المدرسة القديمة قد استدعى للتعليم فيها كلا من أبي زيد عبد الرحمان وأبي موسى عيسى.¹⁷

من بين المصادر القليلة التي أشارت إلى التاشفينية وتغنت بروعتها وروبقها، نذكر كتاب (نفح الطيب) للمقري الذي ضمّنه بعض الأبيات الشعرية التي رآها منقوشة بأعلى دائرة مجرى الماء، فيقول: " رأيت مكتوبا بأعلى دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التي بناها أمير المسلمين ابن تاشفين الزياني، وهي من بدائع الدنيا هذه الأبيات¹⁸ :

أنظر بعينك مهجتي و سنائي و بديع إتقاني و حسن بنائي

و بديع شكلي واعتبر فيما ترى من نشأتي بل من تدفق مائي

جسم لطيف ذائب سيلانه صاف كذوب الفضة البيضاء

قد حف بي أزهار وشي تمقت فغدت كمثل الروض غبّ سماء.

وقد استمرت التاشفينية التي كانت تعد من أجمل مدارس المغرب الأوسط، تؤدي رسالتها التربوية حتى القرن السادس عشر.¹⁹

إن لزم تشييد هذا الصرح أكثر من دلالة، إذ يوضح شروط هذا الإشعاع والتي لولا توفرها لما شيد المعلم ولما بلغ ذلك الجمال والإتقان. وعليه فإن المدرسة التاشفينية قد حظيت بعناية كبرى وكان لا بد أن تنافس المعالم المحاورة لها بمدينة فاس، خاصة وأن الدولتين المجاورتين غربا في صراع سياسي حاد، وبذلك كان لابد وأن تُعزز سمعة وإشعاع الدولة الزيانية بمعلم رائع يبقى شاهداً عبر العصور، يجسد مجد الدولة. وما بناء المدرسة المحاورة لمسجد سيدي أبي مدين من طرف أبي حسن المريني سنة 745هـ/ 1345م حينما استولى مؤقتاً على مدينة تلمسان إلا محاولة لتقويض إشعاع التاشفينية وزحزحة مكانتها. وهذا ما يعطينا صورة حلية لمكانة المعلم داخل الدولة الزيانية، خلال القرن 08هـ/ 14م وما بعده.

وباندثار المدرسة وهياكلها واختفاء كل أثر دالّ عليها، أصبح من الصعب الإحاطة بكل التفاصيل المتعلقة بها، سواء فيما تعلق بهيكلها وإدارتها أو نظام تسييرها تربوياً، وطرق التدريس بها ولائحة أشهر مدرسيها ومريديها. وحتى الكتب التاريخية لم تتحدث عن مصادر

الأموال التي أنفقت في إنحاز هذا الصرح المعماري الثقافي الهام. ولم تقع تحت أيدي الباحثين ولو وثيقة واحدة تبين التحسيس أو التوقيف عن مدارس المغرب الأوسط في القرن 08 هـ/ 14 م على الرغم من إشارة بعض المصادر التاريخية صراحة إلى ما قام به السلطان أبي تاشفين الزياني وباقي ملوك الدولة الزيانية من تحسيس وتوقيف الأموال والأملاك المختلفة عليها²⁰، والتي كانت تنفق في:

- أجور المدرسين من العملاء و جرايات الطابة.

- تخصص جزء من المداخل لإصلاح المؤسسات وشراء مختلف التجهيزات الضرورية من حصير و أفرشة وزيت الوقود.

- منح أعطيات للأطر الإدارية المسيرة لشؤون المدرسة، و السهر على خدمة الطلبة، إضافة إلى القائمين على نطاق البناية و حراستها.²¹

رغم الأهمية التاريخية للمدرسة إلا أنها طمست آثارها ولم يبق من ذكرها إلا الاسم، وقد كانت هذه المدرسة قائمة ومحافظة على شكلها الأصلي إلى غاية 1873م، غير أن السلطات الاستعمارية الفرنسية قامت بإزالتها بغرض تهيئة ساحة عامة وبنيت بدلها دار البلدية الحالية. وظلت هذه المدرسة تقوم بوظيفتها التربوية التثقيفية طوال فترة تواجد الدولة الزيانية.²²

● المدرسة البعقوبية :

توجد هذه المدرسة بجوار مسجد الشيخ إبراهيم المصمودي، شرق مسجد أبي الحسن وجنوب غرب المشور في حي باب الحديد. شيدت هذه المدرسة بأمر من الأمير الزياني أبو حمو موسى الثاني (760هـ-791هـ) (1358م-1388م) سنة 763هـ، بعد أن تربع عرش تلمسان تخليدا لوالده أبي يعقوب الذي أدركته الوفاة سنة 763هـ/1362م. وكان أبو حمو الثاني، قد أمر بدفن أبيه برياض يقع بالقرب من باب إيلان، ونقل رفاته عميه، أبا سعيد وأبا ثابت اللذان توليا حكم تلمسان في الفترة السابقة، من مدفنهما القديم بالعباد، إلى جوار ضريح والده²³، ثم شرع في بناء مدرسة بإزاء أضرحتهم. ويقول التنسي في هذا الشأن فلما كملت المدرسة نقلوا ثلاثتهم إليها، واحتفل بها وأكثر بها الأوقاف، ورتب فيها الجرايات²⁴

هذا ما يفسر أن تأسيسها جاء حتى يكون هذا المعلم الثقافي رمزا من رموز شموخ الدولة الزيانية وهي المدرسة التي أشاد المؤرخون بروبقها وجمالها وحسن عمارتها. وقد استغرق وقت بنائها أكثر من سنة ونصف، بحيث انتهى من إنجازها سنة 765هـ/1364م. وهنا تكمن حكمة مؤسسها الذي قال في شأنه يحي ابن خلدون أن البعقوبية من أعمال السلطان أبي حمو موسى الثاني²⁵ ومن المعروف عن هذا السلطان أنه -واسطة عقد الزيانيين-²⁶ وأنه أبان عن ولعه الشديد بتشييد المباني من المساجد والمدارس، حيث شرع في تأسيسها فور الانتهاء من مراسيم دفن والده، فكان الانتهاء من بنائها سنة 765هـ/1354م. وقد اشتهرت المدرسة باسم البعقوبية نسبة إلى والد السلطان أبي حمو موسى-أبا يعقوب- بعد اكتمال بنائها، كما كان يطلق عليها أيضا "مدرسة إبراهيم المصمودي"²⁷ الذي توفي ودفن بها سنة

805هـ/1402م، وهذه التسميات إن دلت على شيء فإنها تدل على تكريم العلماء والأدباء، كما تدل على مكانته العلمية و الفكرية للراقية في تلك الفترة.

وعلى الرغم من أن المدرسة يعقوبية هي الشاهد الوحيد الذي يؤرخ لفترة حكم هذا السلطان، ومع ذلك لم يبقى منها ما يساعد على إعادة رسم مخططها أو معرفة أقسامها. وكما هو معروف عن السلطان أبا حمو موسى الثاني أنه لم يبدأ في إنشاء مشاريعه الثقافية والعلمية إلا بعد تخليص تلمسان من السيطرة المرينية، وأعاد للبلاد استقرارها وأمنها. كما أن المصادر التاريخية- بما فيها يحي ابن خلدون- لم تورد إشارات واضحة حول الظروف التي أحاطت بتأسيس يعقوبية، خاصة إذا علمنا أن بني عبد الواد اعتادوا على إضفاء نوع من الاحتفالية على عملية تدشين المباني الكبرى كالمدارس. إذ ينتقل السلطان بمعية العلماء والوزراء وأعيان الدولة لتدشين المبنى حتى يلتفتوا الأنظار إلى أهمية ما يقومون به من أعمال. وأوكل للعالم الشيخ الشريف الحسيني أبي عبد الله للتدريس بهذه المدرسة، والذي قال في شأنه صاحب البستان: "فانتقل إلى تلمسان، وتلقاه أبو حمو براحتيه وأصهر له في إبنته، فزوجها إياه وبني له مدرسة، وأقام الشريف يدرس العلم بها إلا أن هلك رحمه الله سنة 771هـ/ 1370م".²⁸ وذكره التنسي بقوله: "وله [يقصد أبو عبد الله المعروف بالشريف التلمساني] بن مدرسة، حين توفي والده في تلمسان، ودفن بباب إيلان ثم نقل إلى جوار أخويه السلطانين أبي سعيد وأبي ثابت..."²⁹. وما قاله ابن مريم والتنسي يجعلنا في حيرة من أمرنا، و يجرنا للتساؤل عن طبيعة المدرسة التي بناها أبا حمو موسى لابن الشريف التلمساني، هل هي نفسها يعقوبية؟ أم أنه يقصد بها مدرسة أخرى أغفلتها المصادر التاريخية؟، وإن كانت البيقوبية نفسها، فهل بناؤها الذي أشارت المصادر إلى إتمامه سنة 765هـ/1354م، لم يكن مكتملا بعد عند مقدم العالم

الجليل؟. من دون شك أن عملية تأسيس المدرسة قد تمت بعد فترة من قدوم العالم أو تزامنت معه، وبالتالي لا يستبعد أن تكون هذه المؤسسة التعليمية هي ثاني مدرسة تؤسس في عهد هذا السلطان.

فقدت هذه المدرسة الكثير من ملامحها القديمة وأصبحت جزءا من مسجد الشيخ ابراهيم المصمودي ومن الضريح، فيصعب بذلك وصف أقسامها ومرافقها.³⁰ إلا أنه لا يمكن إغفال مساهمتها في إعداد وتكوين عدد من العلماء والفقهاء والخطباء والقضاة، كان لهم الأثر البالغ في الحياة الفكرية ونشر اللغة العربية وتثبيت المذهب المالكي بالمنطقة ترسيخ الثقافة الإسلامية.

استنتاج:

يتبين لنا من خلال استعراضنا لهذه اللوحات التاريخية حول المؤسسات الثقافية خلال العهد الزياني، أن السياسة التعليمية احتلت سلم الأولويات لدى امراء بني زيان، فكان سعيهم نحو تخصيص ميزانية اكبر للتعليم وتشبيدهم للمدارس العلمية خطوة هامة في تعزيز التوجه العلمي والترعة الثقافية التي اصطبغت بها تلمسان واشتهرت بها، حتى أصبح ذكر تلمسان مربوطا بالعلم والعلماء، ولاشك أن هذه الصروح العلمية ماكانت إلا لتزيد في تكوين الطلبة في شتى العلوم فكانت مقرا لتدريس العلوم النقلية والعقلية، يذكر أن الدولة الزيانية استفادت أيما استفادة من هذه المدارس حيث كونت لها موظفيها من قضاة ومفتين ومحتسبين ومدرسين، أثروا ساحة تلمسان العلمية بشتى المؤلفات النقلية والعقلية، فحققت تلمسان بذلك اكتفاء ذاتي فيما يخص مناصب الدولة، بل أن البعض منهم وظف في البلاط المريني.

الإحالات

1- محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع و الثقافة بالمغرب الوسيط، دار طوبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ب ط، سنة 1987، ص 69.

2- Abbé Barges, Notice sur la ville de Tlemcen, journal asiatique, 3eme série, tome 11, imprimerie royale, Paris, janvier 1841, p5

3- Chems Eddin Chitour, l'Education et la Culture de l'Algerie. Des origines à nos jours, ENAG/EDITIONS-DISTRUBUTIONS, 1999, p78

4- عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ج 2، ص 325-326- أيضا عبد الرحمن بالأعرج، العلاقات الثقافية بين دولة بني زيان و الماليك، رسالة، ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، قسم التاريخ، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2007/2008، ص 36

5- عبد الرحمن ابن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج 7، ص 134- أيضا يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 130-، عبد العزيز لعرج، المقال السابق، ص 120.

6-Dhima (A), op.cit, p108

7- التنسي، المصدر السابق ص 139

8- ابن المصدر السابق، ص 126

9- التمكني، المصدر السابق، ص 245، يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 130.

10- MARCAIS G ; Remarque sue les Mederssas Funéraire En Berbères A propos de la Techfinia de Tlemcen (Melaque Gaudforienes ; Inst France-Caire ; 1937 ; p204 .

12-Chtour (CH.E) ,op.cit., p78

13- ابن مريم، المصدر السابق، ص 126

14- رشيد بورويية، حولة عبر مساجد تلمسان، مجلة الأصالة، ع 26، جويلية -أوت 1975، ص 181

15- صالح بن قربة المرجع السابق، ص 144، أيضا،.

16- صالح بن قربة المرجع السابق، ص 145. أيضا، عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 36.

17- التنسي، المصدر السابق، المصدر السابق، ص 141

18- أحمد المقرئ، المصدر السابق، ج 5 صص 223-224.

19- عبد الرحمن ابن خلدون، التعريف... المصدر السابق، ص 31

20- أحمد المقرئ، المصدر السابق، ج 8، ص 154-157. عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق

، ج 1، ص 144، لخضر العبدلي، المرجع السابق، ص 288-289.

- 21-الحسن الوزان ،المصدر السابق،ص.19
- 22- Marçais (G) : Remarques sur les mederssa op.cit, p259
- 23-صالح بن قرية ،المرجع السابق،ص147
- 24-التنسي ،المصدر السابق،ص 141،عبد العزيز فيلاي ،المرجع السابق،ج 1،ص142،عبد الحميد حاجيات ،أبو حمو ...المرجع السابق،ص 61
- 25-William et Georges MARCAIS,les monuments Arabes de Tlemcen ,Librairie Thorin ,Parie ,Parie ,185
- 26- BARGES, Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom, sa topographie, son histoire, Paris, 1859, p.391
- 27-التنسي، المصدر السابق.صص 179-180
- 28-يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 2، ص ص 134 - 136
- 29-صالح بن قرية ،المرجع السابق،ص150
- 30-[Victor Piquet](#) Autour des monuments musulmans du Maghreb: Algérie.- 3. Maroc
Volume 1 de Autour des monuments musulmans du Maghreb: esquisses historiques, G.-P. Maisonneuve, 1948, p 183
- 31-ابن مريم ،المصدر السابق،ص164،ينظر كذلك عبد الرحمن ابن خلدون ،التعريف...المصدر السابق، ص 66
- 32-التنسي، المصدر السابق.صص 179-180
- 33-عبد الحميد حاجيات ،أبو حمو...،المرجع السابق،ص182 ، عبد العزيز فيلاي ،ج 1، ص 143،أيضا: [Victor Piquet](#) ,op.cit ,p205